الباب الثاني

النثر العربي الحديث

الدكتور فائق مصطفى أحمد

(الفصل السابع)

تطور النثر العربي الحديث عوامله ومظاهره

أخذت بوادر الضعف والعقم تظهر في الأدب العربي ، شعرهِ ونثرهِ ، منذ احتلال بغداد على أيدي المغول في عام ٦٥٦ هـ ، واستفحل ذلك وأصبح معلماً بارزاً من معالم أدبنا في العهد العثماني حيث أُهمِلت اللغة العربية وصارت اللغة التركية لغة الدولة الرسمية .

عاش الوطن العربي خلال عِدّة قرون انكساراً حضارياً ، أصبح فيها كل شيءٍ باعثاً على التخلف والضعف ، فالنظام السياسي أنعزل عن الشعب وصار قائماً على العنف والجور ، فاختلفت المساواة بين الناس وانتشرت الرشوة وأهملت مرافق البلاد الرئيسة ودمرت مصادر الثورة فانتشر الفقر والبؤس ، وأصبح المجتمع يتكوّن من طبقتين رئيستين هما طبقة الأغنياء من الولاة والأمراء وحاشيتهم ، وطبقة الفقراء التي تشمل أغلبية الشعب . كذلك هُدمت المدارس وتفشي الجهل والأميّة بين الناس واقتصر التعليم على الكتاتيب وبعض المعاهد الدينية . وفي الوقت نفسه تدهورت الصحّة العامة فانتشرت الأمراض والأوبئة الفتّاكة ، مِمّا أدّى إلى هلاك أعداد كبيرة من السُكان .

كان طبيعياً أن تؤثر هذه الأجواء الشاذة في الأدب سلباً ، فقد ضعف الأدب شعراً ونثراً وساده الانحطاط إذ صار ألاعيب لفظية وأداة من أدوات التسلية ، فلم يبق فيه مظهر من مظاهر العاطفة أو الفكر وظهرت فيه الركاكة والعجمة والعامية .

إن النثر العربي ـ وهذا هو موضوعنا ـ كان نصيبه من هذا الضعف ، خلال هذه

الفترة ، أكبر من نصيب الشعر ، ذلك لأن النثر - كما هو معروف - يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفكر والثقافة ، فما دام الفكر والثقافة متخلفين ، فلا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن ينهض النثر ، فهو أبن الفكر والحضارة ، يعيش بوساطتهما ، ويستمد أسباب حيويته منهما.

فالنثر في هذا العصر فقد روحه وصار بعيداً عن الفكر والشعور في الوقت ذاته. ما العمل وكيف يمكن أن يستر على نفسه ، وهو خاوٍ فكراً وشعوراً ؟ لم يجد أمامه إلا أن يلجأ إلى الزخارف اللفظية والألاعيب البديعية حتى يُعوّض عن هذا النقص الذي يعاني في كيانه ، فكان أن طغى السجع على أسلوب النثر ، وشاركه في ذلك البديع ، الأمر الذي جعل أسلوب النثر أسلوباً مزخرفاً ومتكلفاً ومفتقراً إلى كل ما يُمُت بصلة إلى الأدب ، وصارت الشقة واسعة جداً بين هذا الأسلوب وأسلوب النثر في عهوده الأولى.

ولم يسر هذا الضعف في أسلوب النثر حسب ، بل تعدّاه إلى مضمونه، إذ موضوعاته وغدت موضوعات ساذجة ، ودارت على بعض الإخوانيات والمناظرات.

ظلت هذه الخصائص والسمات في النثر العربي حتى منتصف القرن التاسع حيث أخذت تظهر عوامل ومُستجدّات في المجتمع العربي تعمل على تغير النثر حتى يتلاءم وروح العصر.

وفيما يأتي أهم هذه العوامل التي عملت على نهضة النثر العربي الحديث:

يقظة الأمّة العربية :

على أثر ضعف الدولة العربية الإسلامية وتفككها إلى دويلات وإمارات الحكم العثماني ،أستغرق المجتمع العربي سبات سياسي ، وعد العرب أنفسهم الإمبراطورية العثمانية التي ضمّت أغلب الأقطار العربية.

كان من أسباب هذا السّبات ضياع السيطرة العسكرية والتجارية التي كانت أيام ازدهار حضارتهم ، وعزلة العرب عن العالم . لكن مع حلول العصر الحديث وبالذات منذ مطلع القرن التاسع عشر ، أخذت الأمة العربية تعي ذاتها وتستيقظ من

والدقيق المباشر عن مفاهيم الفكر الحديث»[1].

لقد عملت اليقظة السياسية والنهضة الفكرية للعرب وكتابات هؤلاء الأعلام وغيرهم على نهضة النثر العربي الحديث عن طريق تطويعه للتعبير عن مختلف الأفكار والقضايا السياسية والاجتماعية كذلك جعلت النثر يتخلص من الزخارف اللفظية، وذلك بالاهتمام بالمعنى بدلاً من اللفظ، وأعانت في الوقت عينه على إيجاد موضوعات كثيرة ومتنوعة فيه.

وعلى العموم تكونت من اليقظة القومية حركة أدبية ساهم فيها الشعر والنثر، عبرت عن تطلعات العرب وخوالجهم القومية.

البعثات:

بدأت البعثات العلمية إلى أوربا في عهد محمد علي الذي أكثر من هذه البعثات العلمية، وكان هدفه فيها تقوية جيشه وجعله على غرار الجيوش الأوربية، وبناء دولة على وفق الأسس الحديثة. ولتحقيق هذا الغرض بدأ أولاً بتأسيس مدارس حديثة في مصر، وجلب لها أساتذة أوربيين، غير أنه رأى فيما بعد أن الفائدة المرجوّة في ذلك لا تتحقق إذا لم يكن المدرسون والعلماء من أبناء البلاد. لهذا، وللتعجيل في تحقيق أغراضه، راح يرسل البعثات إلى أوربا ليتخصص أبناء البلاد في سائر العلوم التطبيقية.

بدأت البعثة الأولى إلى فرنسا في عام ١٨٢٦، وضمّت أربعة وأربعين طالباً للتخصص في الهندسة والطب والزراعة والكيمياء والطباعة والميكانيك، واختار لها رفاعة الطهطاوي إماماً.

وتوالت البعثات فيما بعد، حتى أصبحت إحدى عشرة بعثة ومنها البعثة الطبية الكبرى في عام ١٨٣٢، وقد ضمّت الطلبة النابهين في مدرسة الطب المصرية، وفي عام ١٨٤١، أرسلت بعثة ضمّت بعض الأمراء من أسرة محمد علي وكانت آخر بعثاته الكبرى.

ومن أجل هذه البعثة فتح محمد علي مدرسة في باريس سمّاها «مدرسة
أشهر رجالها علي مبارك ، وتوقفت هذه البعثات في عام ١٨٤٧ .

لقد ضمّت هذه البعثات ٣١٩ طالباً ، واتخذ محمد علي من
ومترجمين وأطباء لجنده وموظفين لحكومته .

توقفت البعثات في عهد عباس الأول وسعيد، لكنها استؤنفت في
بسبب انفتاحه على أوربا . وفيما بعد صارت الأسر الثرية ترسل أبناءها للدراسة
الأوربية . هذا ما حدث في مصر . أما في الأقطار العربية الأخرى فقد تأخر
التعليمية إلى أوربا ، ففي العراق مثلاً لم تبدأ إلاّ في أواخر العشرينات من
وزادت في أوائل الثلاثينات .

كان للبعثات أثر كبير في نهضة مصر وإدخال العلم الحديث اليها . كما
فضل في إحياء اللغة العربية وجعلها مسايرة للعلم الحديث ، بما ترجم أعضاؤها
وما أدخلوه من مصطلحات ، وما ألفوه في شتى نواحي العلم[1] .

المدارس :

عُرفت مصر قبل غيرها من الأقطار العربية المدارس الحديثة في عهد
وكان غرضه في تأسيسها ـ كما ذكرنا ـ تقوية جيشه وتوطيد أركان دولته .
المدارس التي أسسها المدرسة الحربية ومدرسة الطب ومدرسة الصيدلة
ومدرسة الولادة والتمريض ومدرسة الألسن .

وعلى الرغم من أن طابع هذه المدارس كان طابعاً عسكرياً وعملياً ، استطاع
تخلق في مصر بدايات نهضة علمية . لكن التعليم يُصيبه الركود بعد موت
وابنه ابراهيم ، إذ لا يهتم به عباس وسعيد . ومع عهد إسماعيل (١٨٦٣) تعود
المدارس إذ يهتم بها إسماعيل ويُنوعها فيجعلها ابتدائية وثانوية وعالية ، ويفتح

---

(١) في الأدب الحديث : عمر الدسوقي . جـ١ . ص ٢٨ ـ ٢٩.

البرنامج التعليمي ، على الرغم من عمره القصير ، أن يحدث يقظة
القومي ، إذ كان يستهدف تنبيه الوعي القومي بين الطلاب[1] . كما
تعليمياً حين تولى مدحت باشا ولايتها في عام ١٨٧٨ إذ أسس
والإناث في دمشق والمدن السورية الأخرى ، واستمر التوسع في
الرغم من الطغيان السياسي ، حتى صار عدد المدارس (٢٦٦) مدرسة
ومدرستان للمعلمين ، تخرج فيها قواد حركة التنوير والتحرر في العالم
أسهمت البعثات التبشيرية في أنشاء عدد كبير من المدارس في دمشق

لكن النشاط التعليمي في العراق تأخر بالقياس إلى مصر وسوريا
العزلة التي فرضت على العراق أثناء الحكم العثماني ، فلم يشهد العراق
عشر إلا بعض المدارس الدينية والتركية التي لم تترك إلا آثاراً ضئيلة
للبلاد . وعندما دخل الانكليز بغداد فتحوا فيها بعض المدارس لتخريج
في دوائر الدولة المختلفة . وبعد قيام ما يسمى بالحكم الوطني زاد عدد
بغداد ومدن أُخرى ، وترتفع النسبة بعد الحرب العالمية الثانية. وفي
كليات نهضت بالتعليم العالي مثل كلية الحقوق والطب ودار المعلمين

وعلى العموم ساهمت المدارس مساهمة عظيمة في نشر التعليم
العربي وتخريج الكُتّاب والمثقفين الذين تقوم على أيديهم النهضة
تلعب هذه المدارس دوراً عظيماً في نشر اللغة العربية والنهوض بها ، وبعث
المرسل في النثر بدلاً من الأسلوب المزخرف والمسجوع ، لأن هذا الأسلوب
الذي يكون قادراً على استيعاب العلوم والمعارف الحديثة وإيصالها إلى
الناس .

الترجمة :

---

(١) محاضرات عن القصة في سوريا : شاكر مصطفى . ص ٢١ .

عرف العالم العربي الترجمة مع اتصاله بالعالم الأوربي في مطلع القرن التاسع عشر، وبدأت مع البعثات الأولى إلى أوربا، وكان رفاعة الطهطاوي رائد هذا الاتجاه، فقد عرف بعقله النير أهمية العلوم الأوربية ومدى حاجة مصر اليها، من هنا كان سعيه العظيم في ترجمة العلم والفكر الأوربي إلى اللغة العربية وتخريج المترجمين بوساطة مدرسة الألسن.

غلب على حركة الترجمة في البداية الطابع العلمي، إذ كانت حاجة البلاد إلى العلوم أكثر من الآداب، لذلك أنصب الاهتمام على ترجمة الكتب العلمية كالطب والهندسة والكيمياء وعلوم النبات والحيوان. وقد أفادت ترجمة العلوم في هذه الفترة اللغة العربية فائدة كبيرة، إذ مرنتها على استيعاب القضايا والأفكار العلمية، وولدت فيها عدداً كبيراً من الكلمات المُعربة والمصطلحات العلمية، بعدّ ذلك غلب عليها الطابع الأدبي الذي تمثل في ترجمة القصص والروايات والمسرحيات.

تمّ أغلب الترجمات في مصر وساهم فيها المصريون والسوريون واللبنانيون الذين نزحوا اليها هرباً من الطغيان العثماني أو بحثاً عن الرزق. وأشهر هؤلاء المترجمين أديب إسحاق وسليم نقاش ونجيب حداد وخليل مطران وفرج أنطوان وفتحي زغلول ومحمد عثمان جلال ولطفي جمعة .. الخ.

كان للترجمة فضلٌ عظيمٌ على نهضة النثر وتقدمه، فهي خلّصت النثر من القيود البديعية الثقيلة، بسبب الاهتمام بالمعاني بدلاً من الجوانب الشكلية. ولو أن المترجمين الأوائل استخدموا أسلوب السجع والبديع في الترجمة أمثال رفاعة الطهطاوي وجماعته. لكن الترجمة فيما بعد اضطرّت أصحابها أن يهجروا الأسلوب الذي ترجم به الطهطاوي وتلاميذه، أعني أسلوب السجع والبديع، فقد رأوه يفسد المعاني التي يريدون نقلها فساداً لسبب بسيط هو أنه لا يتسع لها ولا يتيح للمترجم أن يعبر عنها إلاّ تعبيراً مضطرباً أو تعبيراً ممتلئاً بعوائق السجع والبديع.

الطباعة:

وجدوا فيها أسلوباً مرسلاً وسهلاً يُعنى عناية كبيرة بالمعاني والأفكار ويؤثرها على ما سواها، فكان كل ذلك عاملاً مهماً من عوامل نهضة النثر العربي.

•

الصحافة :

لم تُعرف الصحافة في العالم العربي إلا في القرن التاسع عشر، وعرفتها مصر قبل غيرها من الأقطار العربية، فقد أصدر فيها الفرنسيون صحيفتين باللغة الفرنسية ونشرت باللغة العربية سموها «التنبيه». لكن أول صحيفة عربية عامة أصدرها محمد علي في سنة ١٨٢٨ وسماها «الوقائع المصرية» صدرت أولاً باللغة التركية ثم بالعربية والتركية وفيما بعد اقتصرت على العربية وحدها. بعدها صدرت مجلة طبية باسم «اليعسوب» في ١٨٦٥. وبعد عام صدرت صحيفة «وادي النيل». ثم أصدر ابراهيم المويلحي ومحمد عثمان وجلال جريدة أسبوعية باسم «نزهة الأفكار» في عام ١٨٦٩. وحين توقفت الجريدة صدرت على نقاضها مجلة علمية أدبية باسم «روضة المدارس» ساهم في تحريرها علي مبارك ورفاعة الطهطاوي والشيخ حسين المرصفي، وقد ملأت المجلة فراغاً ملحوظاً وعملت على نهضة اللغة والأدب.

وعلى أثر نزوح السوريين إلى مصر، زاد عدد الصحف والمجلات إذ نشطت الصحافة على أيدي هؤلاء الذين أفادوا من الحرية التي كانت تتمتع بها البلاد آنذاك. ولعلّ أهم ما أصدره هؤلاء من الصحف جريدة «الاهرام» التي أنشأها الإخوان بشارة وسليم تقلا في عام ١٨٧٥، ولاتزال تصدر حتى يومنا هذا، و «المقتطف» في ١٨٧٦ و «المحروسة» التي أصدرها أديب أسحق وسليم نقاش في عام ١٨٧٩، و «المقطم» لآل صروف في عام ١٨٨٨، ومجلة «الهلال» لجرجي زيدان في عام ١٨٩٢.

ومع مطلع القرن العشرين، أخذت تظهر صحف الأحزاب السياسية ومنها «اللواء» لمصطفى كامل، لسان حال الحزب الوطني. بعد ذلك صدرت عشرات الصحف والمجلات الاسبوعية والشهرية.

وفي لبنان صدرت صحف دينية، أنشأتها البعثات التبشيرية منذ منتصف القرن